٨ – النقد الأدبى فى العصر المملوكى
رد على نقد

تفضل الدكتور محمد زكريا عنانى بعرض وتحليل كتابى [النقد الأدبى فى العصر المملوكى] فى مجلة الثقافة العدد ٤٧ أغسطس ١٩٧٧ ، وقد وفى الموضوع حقه ودل بما سجله فيه على طول باعه وسعة اطلاعه .

فإذا أضفنا إلى ذلك عرضه وتحليله لكتاب [مقدمة فى صناعة النظم والنثر] تأليف شمس الدين النواجى وتحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم فى مجلة الثقافة أيضًا العدد ٤٢ أبريل ١٩٧٧ .

وبحثه عن مؤلفات النواجى فى جريدة المدينة التى تصدر فى جده . نقول : إذا أضفنا هذه الدراسات الثلاث إلى بعضها خرجنا منها بتصور فحواه : أن الأخ الدكتور عنانى متخصص فى النقد الأدبى بعامة وفى النقد الأدبى فى العصر المملوكى بخاصة وفى النواجى على وجه أخص . والحمد لله فقد وجدت لى زميلاً مبرزًا وإنى لأقدره وأشكره على حفاوته البالغة بكتابى ، وكم أنا سعيد إذ حقق له نبوءتى التى تنبأت بها فى مقدمته فقد قلت :

« ومع أن تأدية الشىء إلى غيره أمر زائد على ذاته ، فإن المناقشات التى سيثيرها هذا البحث تعد فى فضله وتحسب له » .

وكأننى كنت أنظر بظهر الغيب إلى الدكتور عنانى وأنا أقول :

« إن أمثال هذه الأعمال مجال لالتقاء القلوب الكبيرة والعقول ذات العمق » .

وليصدقنى سيادته إذا قلت له : إن علمه قد دلنى عليه وشوقنى إليه ، وأنا لهذا أخطب وده وأرجو لقاءه أو مراسلته.

* * *

والآن مع الدكتور عنانى فى عرضه وتحليله لكتاب النقد الأدبى فى العصر المملوكى خطوة خطوة.

(١)

أقر السيد الدكتور على قوله « وربما كان أسوأ ما يصادفه المؤلف أن يرى كتابه وقد خرج إلى النور فلم يلتفت إليه النقاد ولو فى مجال الخصومة واختلاف وجهات النظر » .

وهو يعرض فى كلامه هذا بتقاعس النقاد عن استقبال كثير من الكتب الجادة وتقصيرهم فى النظر إليها واتخاذ موقف منها لها أو عليها ولعل من أسباب ذلك انحسار المد النقدى الذى صحب نهضتنا الأدبية وقت أن كانت قوية.

(٢)

يستعرض الدكتور عنانى كتابى ، ويشيد بالجهد الذى بذلته فيه ثم يعقب على ذلك بقوله :

« ولنا عليه مع ذلك بعض ملاحظات ونقاط خلاف نوجزها هنا ولن يكون سعينا تفتيشا عن المآخذ ، بل محاولة لتقديم وجهة نظر أخرى فى بعض الجوانب » .

هذا ما قاله الدكتور عنانى وذلك رأيه .

أما أنا فأرى أن ما قاله سيادته بعد ذلك لا يشتمل على (نقاط خلاف) ولا يمثل (وجهة نظر أخرى) ، إنْ هو إلا توجيهات إلى مصادر للبحث لم ألتفت إليها أو لم تسعفنى الظروف بها فى الوقت الذى أعددته فيه وهو الوقت من يونيه ١٩٦٤ إلى سبتمبر ١٩٧٠ ، فإن لم يكن توجيهات إلى مصادر للبحث فهو تكميلات له ولا بأس ، فالكمال لله وحده.

(٣)

يقول الدكتور عنانى :

« أراد المؤلف فى تمهيده أن يقدم صورة مركزة عن العصر المملوكى وعن دور المماليك فى تنشيط الحركة العملية والفنية والأدبية ، وإذا به يحيد عن هذه الغاية ويظن أن واجبه هو الدفاع عن العصر المملوكى والمماليك » .

وبعد أن يأتى بفقرات مما قلته يصفنى بأننى نصير العصر المملوكى ، وبأننى لا أرى فى حكامه وولاته ورجالاته إلا الجانب الزاهى البراق.

* * *

والحق أننى تكلمت فى التمهيد عن العصر المملوكى زمانًا ومكانًا وعن حيواته العلمية والفنية والأدبية ، ولم أتكلم لا تفصيلًا ولا اجمالًا عن حيواته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فلا يصح الاحتجاج على بسوء الأحوال فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، ومن أراد أن يثبت هذا السوء المتراكم فليدلل عليه بأدلة استقرائية استقصائية ، لا بحالات فردية ولا بشعر لشاعر شكاء بكاء ، فما أكثر الشعراء الشكائين البكائين فى كل وقت وحين ، ولن يشكو شاعر دهره بمثل ما شكا ابن الرومى عصره وهو العصر الذهبى للأدب العربى .

وإذا كان الدكتور عنانى قد أعطى صورتين قاتمتين فإنى لا أرفضهما بل أرتضيهما لكن أضعهما بإزاء الصور المشرقة ، وقد اشتمل التمهيد على كثير منها ، والدكتور عنانى رجل طيب ، فهو لا يلبث حتى ينصفنى من نفسه بقوله : « وللمؤلف شىء من العذر ، فقد نعت العصر المملوكى بأقذع النعوت ، ووصف بالدكونة والعقم والرداءة معًا » .

نعم يا دكتور عنانى . هذا ما كان بل ما هو كائن الآن ، فالمثقفون – فى جملتهم – يظلمون العصر المملوكى ، إنهم يستعيرون النهار فى قصة شهر زاد للتتار فى سقوط بغداد : يؤرخون للحركات العلمية والأدبية والفنية ويقصون قصة الحضارة الإنسانية فيتحركون بها بين طرفين من القوة والضعف ، حتى إذا أتوا إلى سنة ٦٥٦هـ قالوا : وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

وليس الأمر كذلك ولا قريبًا من ذلك كما رأينا فى ناحية دقيقة يلتقى عندها العلم والفن ويمتزج فيها الإدراك بالذوق وهى ناحية النقد الأدبى فى العصر المملوكى.

(٤)

تقليد الخليفة العباسى للظاهر بيبرس مقاليد الأمور فى مصر والشام وفى البلاد الإسلامية كافة ، تقليد حقيقى وشرعى ، ولا يقدح فيه أن الخليفة كان مجردًا من السلطة ، فحسبه نفوذه الدينى وسلطانه الروحى ، ولقد كان ذلك موجودًا فى بغداد نفسها منذ عهد البويهيين بها ، وقصص سحل الخلفاء العباسين وسمل عيونهم وتجريدهم من ممتلكاتهم بل من ملابسهم فى عهدهم ، قصص تقلق الضمير وتجافى الإنسانية ، ومع هذا لم يستغن البويهيون عن خليفة – أى خليفة – يرمزون به إلى الخلافة التى يمثلونها ويستمدون شرعية حكمهم منها.

(٥)

قال الدكتور عنانى « تناول المؤلف فى الفصل الأول ستة وعشرين ناقدًا ، وقد تمنينا لو أنه قصر البحث على تناول النقاد فى المشرق فحسب ، ومن خلال مصر والشام والعراق أى من خلال البيئات التى عايشت بالفعل عصور الحكم المملوكى » .

وأرد على ذلك بما ختمت به الفقرة الأولى من التمهيد . قلت :

« هذه هى دولة المماليك بمصرها وشامها وحجازها ويمنها وعراقها وسائر أطرافها البرية والبحرية ، رسمت حدودها وأوضحت معالمها حتى إذا اهتديت فيها إلى نقد لقفته ووقفت عنده على اعتبار أنه ابن العصر المملوكى ونتاج بيئته الواسعة.

أقول هذا على سبيل الاحتياط فقط، وإلا فأنا أعلم أن البيئة العلمية فى الدولة المملوكية إنما هى الشامية والمصرية ، لأنها كانت منبع العلم والأدب ومهبط العلماء والأدباء الوافدين إليها والمقبلين عليها من البلاد الإسلامية شرقًا وغربًا هربًا بعلمهم وأدبهم من التتار والفرنجة ، واستقرارًا مباركًا طيبًا فى هذه البلاد الخصبة ».

* * *

وأنا لم أعرض لأحد من النقاد المغاربة إلا لحازم وابن خلدون ، ولا اعتراض على ابن خلدون ، فهو قد أقام بمصر من سنة ٧٧٤ إلى سنة ٨٠٨هـ وهى الفترة الأخيرة من عمره ، وفى أثنائها تقلد منصبى التدريس وقاضى قضاة المالكية ، وقصة لقائه بتيمور لنك فى دمشق سنة ٨٠٣هـ مشهورة ، وقد مات فى القاهرة ودفن بها .

أما حازم فإننى كنت بالنسبة له على الأعراف بين أن أذكره وألا أذكره ، ولما لم يكن قد سبقنى أحد إلى دراسته درسته ، وتبرير وضعه فى نقاد العصر المملوكى أنه مملوكى العصر ، وتبرير تركه أنه مغربى لا مشرقى ، وقد استدركت على نفسى بأن جعلته ضمن نقاد المغرب فى كتابى (النقد الأدبى فى المغرب العربى ص٢٤٠– ٢٩٣) .

وعن عد شيخ الاسلام ابن تيمية من نقاد العصر المملوكى لأن له فى كتاب الإيمان فصلاً واحدًا ، ولا يكفى فصل واحد فيما يظن الدكتور عنانى لكى نعد ابن تيمية ناقدًا أديبًا ، وقد كان بوسعى أن أحلل رأى ابن تيمية عند الكلام عن الحقيقة والمجاز دون أن أعده من بين نقاد العصر .

فإننى هذه المرة لا أقر الدكتور عنانى فى أن أمتاح ابن تيمية وأقف لفترة طويلة عند فصل فى كتابه ثم أهمله بألا أعده من نقاد العصر المملوكى .

إن هذا غير منطقى بالمرة ، وفيه ظلم للرجل أى ظلم ، وإهدار لمصدر من مصادر النقد الأدبى فى العصر المملوكى ، ولأتحاشى هذا كله عرضت له ولكتابه ولذلك الفصل من كتابه فى ورقة غير كاملة من كتابى المشتمل على ٥٣٧ صفحة .

ولم أكن غافلاً عن هذا الملحظ وأنا أعالج هذه القضية فى باب الحقيقة والمجاز كما تمنى الدكتور عنانى أن أفعل ، فقد قلت :

« وتتردد الكلمات فى لغة الأدب بين الحقيقة والمجاز ، ما كان منها مفيدًا لما وضع له فى الأصل فهو الحقيقة ، وما كان مفيدًا غير ما وضع له فهو المجاز ، هذا ما استقر عليه رأى العلماء ، ولكن ابن تيمية ينفى المجاز عن الكلام بما فى ذلك القرآن ، ففى كتاب الإيمان فصل ومطلبان على التوالى ، بيانها كالآتى :

فصل فى أن دلالة الإيمان على الأعمال حقيقة لا مجاز .

مطلب تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز اصطلاح حادث بعد القرون الثلاثة .

مطلب إبطال المجاز .

ونحن لا نقر ابن تيمية على رأيه ولو أننا أثبتناه له وجعلناه به أحد نقاد العصر المملوكى وإنما فعلنا ذلك لنثبت أن العصر المملوكى شهد من أصالة الفكر ومن حرية الرأى ما شجع على أن تطرح على بساط البحث حقيقة مسلم بها وهى وجود المجاز ، وعلى أن تكون هذه الحقيقة موضع شك بل موضع إنكار بات .

فلنسجل للعصر المملوكى حيويته ومرونته ، ولنثن على ابن تيمية — ولو لم يصب — باستقلال الفكر وشجاعة الرأى .

والموضوع قبل وبعد من صميم النقد ، لأنه يتعرض بالبحث لقضية أساسية من قضايا الفن ، هى خروج الكلمة فى الأسلوب الأدبى عن معناها المعجمى أو عدم خروجها عنه (النقد المملوكى ص ٣١٣، ٣١٤) .

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر، فإننى قد تمثلت ابن تيمية وأنا أقرأ هذه الكلمات للصديق الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير الثقافة فى مقاله الرئيسى بها العدد ٤٢ مارس ١٩٧٧ تحت عنوان (الجامعة والبحوث الجادة والذوق الثقافى) قال : « والبحث الآخر عن فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث وهو من تأليف الدكتور لطفى عبد البديع وهو بحث علمى جرىء يحاول فيه المؤلف أن يعيد

صياغة بعض الحقائق التى أصبحت عندنا فى حكم المسلمات ، فهو يحاول فى فصول الكتاب أن يبطل فكرة المجاز » .

ولينظر الدكتور عنانى معى كيف أن فصلاً من كتاب الإيمان لابن تيمية قد تطور مع الزمن إلى كتاب قائم بنفسه للأستاذ الدكتور لطفى عبد البديع ؟ !.

فهل يجوز لى أن أؤلف فى النقد الأدبى المعاصر وأنتفع بكتاب الدكتور لطفى ثم أهمله ؟ ! إننى لو فعلت ذلك لم أكن منصفًا للدكتور لطفى ولا لنفسى بل لم أكن منصفًا لبحثى.

(٦)

وعن عدم إشارتى بحرف واحد لبعض أعلام النقد فى تلك الفترة ، فلم أذكر ناصر الدين بن شافع بن عساكر (٦٤٩ – ٧٣٠) ولم أشر مجرد إشارة إلى عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩هـ .

فإننى أدافع عن نفسى بأن الثانى غير داخل فى عصرى الذى يبدأ بتولى المعز أيبك التركمانى حكم مصر سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م .

أما الأول فللباحث الفاضل الحق كل الحق فى مؤاخذتى على تركه ، على أنه – شكر الله له .. قد خفف من هذه المؤاخذة الجيدة بقوله بعد سرده بعضًا من كتب ابن عساكر :

« ولا يصح الاحتجاج بأن أعماله كلها أو بعضها ضائعة ، فهو – ابن عساكر – فى نهاية المطاف من نقاد عصره المبرزين ، وإذا لم يجد له ذكرًا فى دراسة عن النقد فى العصر المملوكى فأين سيذكر ؟ ».

أى والله ، وكم أنا آسف على هذا الفوت، لكن ليصدقنى الدكتور عنانى إذا قلت له : انه لم يقع لى مرجعه الذى رجع إليه فى أمر ابن عساكر وفوق كل ذى علم عليم ، ولا يضير ستة وعشرين ناقدًا ألا يكونوا سبعة وعشرين خصوصًا إذا كانت كتب السابع والعشرين كلها أو بعضها ضائعة.

(٧)

وعن عدم عرضى بالمرة للآراء النقدية المبثوثة ، فى ثنايا كتب ذات وزن مثل (وفيات الأعيان) لابن خلكان و (شعراء الزمان) لابن السباعى و (طبقات الأدباء) لياقوت .

فإننى أرد على ذلك بأن أبا العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان قد توفى سنة ٦٨١هـ ، وإذًا فلم يدرك من عصرى سوى ثلاث وثلاثين سنة ترجم فيها لثلاثة فقط من أدباء العصر المملوكى، أقول (أدباء) وأعنيها ، فليسوا بنقاد إذًا ، وهؤلاء الثلاثة هم :

١ – زهير بن محمد بن على المهلب شاعر كاتب ، توفى سنة ٦٥٦هـ ج ٢ ص ٨٦ ترجمة رقم ٢٣٤ .

٢ – جمال الدين بن مطروح الشاعر وزير الملك الصالح أيوب توفى سنة ٦٤٩هـ ج ٥ ص ٤٠٢ ترجمة رقم ٧٨٢ .

٣ – يوسف بن محمد بن إبراهيم أبو الحجاج البياسى الأندلسى ت ٦٥٣هـ ج ٦ ص ٢٢٦ ترجمة رقم ٨٢٢ . هذا عن ابن خلكان

وكتابه وفيات الأعيان ، لا نجد به ممن عاش فى العصر المملوكى سوى ثلاثة : واحد عاش فيه سنة واحدة ، والثانى عاش فيه خمس سنوات لكنه أندلسى ، وأكثرهم مملوكية وهو الثالث عاش فيه ثمانى سنوات ، وثلاثتهم ليسوا نقادًا كما قلنا .

وعن ابن السباعى وكتابه (شعراء الزمان) فلا أعرف عنهما شيئًا وأسأل : أوصل إلينا كتابه ؟.

وإذا كان قد وصل إلينا فأين ؟ ومتى ؟.

أما ياقوت ، فقد توفى سنة ٦٢٦هـ أى قبل حلول العصر المملوكى باثنتين وعشرين سنة.

(٨)

وعن (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) لابن الأثير ، وما أحدثه من رد فعل له أو عليه ، وأننى قد وقفت ممن هم عليه عند اثنين فقط هما ابن أبى الحديد فى كتابه (الفلك الدائر على المثل السائر) والصفدى فى كتابه (نصرة الثائر على المثل السائر) ، (ولعله كان ينبغى أن أشير كذلك لأعمال أخرى لم تذهب إلى مثل وجهة ابن أبى الحديد والصفدى » .

فإننى أقول للدكتور عنانى : لم يفتنى ذلك ، والكتب التى ذكرها سيادته أربعة لها خامس هو (نزهة الناظر من المثل السائر) للأديب الطبيب نجم الدين اللبودى المتوفى بدمشق سنة ٦٧٠هـ والكتب

الخمسة مفقودة ، وقد عرضت لذلك كله فى كتابى (نقد النقد فى التراث العربى) ص ٢١٨ – ٢٢٠ .

وانظر نصرة الثائر ص ٢٥ – ٢٧ وكشف الظنون ج ٢ ص ٣٧٥، ٣٧٦.

(٩)

وعن عدم التفاتى لظاهرة المختارات التى صنفها كثير من أدباء العصر المملوكى ، وتتضمن فى الغالب الأعم مقدمات تكشف عن الحس النقدى لصاحب المختارات .

فاننى أقول لأخى الدكتور عنانى : اننى انتفعت وأنا أعالج النقد الجملى بما قاله ابن نباتة عن ابن قلاقس ، فلم أهمل المختارات جملة ، وهل نهاية الأرب فى فنون الأدب إلا مختارات من كتب أو لكتب :

وأشهد لقد قرأته كله أقصد المطبوع منه وكان ثمانية عشر جزءا ، وأقرر أننى لم أنتفع به أى انتفاع فى موضوعى ، ولنفرض أنه قد أفلتت منى مطبوعات أو مخطوطات أو شخصيات أو مختارات ، فإن ذلك لا يقصم ولا يصح أن يقصم ظهرى ، ولا يحبط ولا يصح أن يحبط عملى ، واستكماله لا يكون خلافًا فى الرأى ، ولا يمثل وجهة نظر أخرى ، ولا يعزب عن بال أى ناقد ما قلته فى أول صفحة من كتابى ، لقد قلت :

« وليطمئن القارىء إلى أننى قد وجدت نقدًا ونقدًا ذا بال فى العصر المملوكى ، وهذا النقد هو المادة العلمية لهذا البحث ، بل إن النقد

الأدبى فيه كان من الكثرة والوفرة بحيث إنه بدا لى أن أجعل عنوانه (من النقد الأدبى فى العصر المملوكى) وليس النقد الأدبى فيه ، إقرارًا بعجزى عن الإحاطة به ، ومراعاة للأمانة العلمية .

وأضغط وسأظل أضغط على قولى (إقرارًا بعجزى عن الإحاطة به ، ومراعاة للأمانة العلمية).

(١٠)

وأما أننى أنقل فى صفحة ٩٥ عن كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٢ نقلاً شبه حرفى دون إشارة للمصدر .

فكم أنا آسف بل كمد وأنا أسجل هذه الملاحظة ، لأنها – واسمح لى يا دكتور عنانى – ملاحظة ظالمة وغير صائبة .

ماذا فى صفحة ٩٥ ؟.

إنها بدء الكلام عن صفى الدين الحلى وقد اعتمدت الدرر لابن حجر عمدة فى ترجمته ، ولم أرجع فيه إلى مصطفى عبد الله المشهور بحاجى خليفة وبكاتب جلبى فى كتابه (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) اللهم إلا أن يكون قد حصل تطابق فى تسمية كتب صفى الدين الحلى ، وليس هذا أخذًا ، وليصدقنى الدكتور عنانى إذا قلت له :

إننى عولت على مخطوطتى الحلى فى ذكر اسميهما وهما :

١ – الكافية البديعية فى المدائح النبوية .

٢ – النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية والمخطوطتان موجودتان بدار الكتب المصرية تحت رقم واحد هو ٢٩٠ بلاغة .

وقد ذكرت أننى اتخذت شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى عمدة لى فى ترجمة الحلى ، وأضيف أننى نقلت عنه العبارة الآتية وهى تمثل السطر الثالث فى كلامى عن الحلى . (وكان الصدر شمس الدين عبد اللطيف يعتقد أنه ما نظم الشعر أحد مثله مطلقًا) .

هذه هى العبارة المقتبسة لا يوجد فى صفحة ٩٥ بعدها مقتبس غيرها وهى موثقة بأنها من الدرر ج ٢ ص ٤٧٩ ، فكيف بالله يكون مصدرها هو كتاب (كشف الظنون) أولاً ، وكيف يرمينى الدكتور عنانى بأننى أنقل عنه نقلاً شبه حرفى دون إشارة إلى ذكر المصدر ثانيًا ؟ !.

إن كان نقل يا أخى فيكون صاحبه هو صاحب كشف الظنون وقد توفى سنة ١٠٦٧هـ ، أما المنقول عنه فهو كتاب الدرر لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢هـ ويبقى قولك « دون إشارة إلى ذكر المصدر » معلقًا.

(١١)

وعن ظاهرة السهولة فى شعر العصر المملوكى فقد عرضت لها فى موضعين :

الموضع الأول فى الفصل الأول وأنا أتكلم عن الحلى (٩٧–٩٩) .

والموضع الآخر فى الفصل الأول وأنا أتكلم عن مذهب السهولة (٢٨٢ - ٢٨٧) .

وقد قرأ الدكتور عنانى الكلامين فاستقام له ثانيهما ولم يستقم له الأول ربما لأنه كان معجلاً وأنا أرجوه أن يعيد قراءته وهو على وجه التحديد ورقة وسبعة أسطر ساعتها سيتأكد من أن الحديث لم يقدنى إلى غير ما أقصد.

(١٢)

لم يعجزنى فك الأقواس التى وضعها الدكتور عنانى حول كلمات (الحلى) و (الحموى) و (الصفدى) ذاهبًا كما هو واضح إلى أنهم لا يمثلون طبيعة الشعب المصرى المستمدة من طبيعة أرضه .

وأنا أقول : إن الحموى والصفدى يمثلان الشعب المصرى كما يمثله ابن نباتة وكما عاشا هنا فى القاهرة عاش ابن نباتة هناك فى دمشق ، لقد كانت القاهرة عاصمة المماليك ، والحموى والصفدى بل الحلى وقتها تشبه المراغى والباقورى والمنفلوطى والدمياطى فى الوقت الحاضر ، ولم أكن غافلا عما تومىء إليه يا دكتور عنانى ، فأنا قد قلت فى صدر صفحة ٩٩ « وإذا كانت ثقافة الحلى ثقافة عراقية ، فإن هذا لا يمنع من أن يكون قد تأثر بالثقافة المصرية التى كانت أوسع أفقًا من ثقافة العراق فى ذلك الوقت ، وليس شك فى أن ثقافة العراق قد تأثرت بها وأفادت منها ».

(١٣)

(توشيح التوشيح) بالحاء فى الأولى وأنها (توشيع بالعين) و (عقود اللآل فى موشحات الأزجال) وأنها (فى الموشحات والأزجال) . و(غيضبة) فى مكان (غبطة) و (الحجة) لا (المحجة) .

هذه وأمثالها ان لم يمكن تخريجها نعتدها أخطاء مطبعية ، وهى من قبيل (العشب اليهودى) بدلاً من (الشعب اليهودى) وقد جاء ذلك فى تحليل كتاب (شريعة الحرب عند اليهود) جنبًا إلى جنب مع تحليل (النقد الأدبى فى العصر المملوكى) ، وفى تحليل النقد المملوكى من ذلك الشىء الكثير .

أما كتاب (الصبوح فى مجالس الشراب عند الصباح) وأن اسمه (الصبوح) فقط أو (الصبوح والغبوق) فهذه أمور بسيطة ، وهى تأتى من إضافة القارىء موضوع الكتاب إلى اسمه أو تدخله فى هذا الاسم بالعطف عليه أو بنعته ، ويهتم بها من يحقق هذه الكتب ، أما الدارس لها مع غيرها فقد تعطله أمثال هذه الأمور عن قصده.

(١٤)

وعن « مساواتى الدر وهو الجاحظ بالحصى وهو الإبشيهى مع أن الجاحظ أصالة وقوة باع وغزارة علم وهو رجل جدل ومنطق وملكة فاحصة ناقدة أما الإبشيهى فجامع للنصوص حاشد للغث والسمين ، وكتابه لا ينبىء بحس أدبى أو روح نقدى ، الأول فى ساح الأدب طود شامخ ، والثانى حصاة ملقاة فى الطريق ، ولا علاقة بينهما إلا إذا

قلنا : إن الطود لا يعدو أن يكون كومًا من الصخر والحصى » .
أقول : مع تسليمى بكل ذلك إلا أن بينهما وجه شبه هو ما ذكرته وأنا أدرس الإبشيهى وها هو ذا بالنص :

الإمام شهاب الدين محمد بن أحمد الإبشيهى بكتابه (المستطرف فى كل فن مستظرف) كأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابيه (البيان والتبين) و (الحيوان) كلاهما يعتمد النصوص المنقولة عن الغير رأيًا له ، وعلينا نحن الدارسين أن ننظر اتجاه هذه الكوكبة أو تلك من النصوص المختارة للموضوع المعروض للبحث فإن اتجاهها — وهو الإطار الذى يحوزها — هو ما يمكن أن نضيفه إلى مؤلف الكتاب من رأى (١٧٩ ، ١٨٠) .

وأنا عند قولى .

ومن البدائة البلاغية أن المشبه لا يأخذ كل صفات المشبه به ، هذا عند اطلاق التشبيه ، أما وقد حددت فى عبارتى السابقة وجه الشبه فأرجو ألا يحملها أحد فوق ما تحتمل.

(١٥)

ونصل إلى النواجى ، والمآخذ المآخوذة علىَّ بسببه أربعة :

الأول — أننى أفردته بفضل عناية لأنه — على حد قول الدكتور عنانى — (بلدياتى) وهذا حق لكننى لم أقصر مع غيره ، والقارىء المحايد ينصفنى .

الثانى – أننى لم أذكر كل كتبه ، وعذرى أننى وقفت عندما عرفت . وإذا كنت قد ذكرت سبعة عشر كتابًا من كتبه ، فإننى لم أغلق الباب ورائى وها هو ذا الدكتور عنانى قد أوصلها إلى « زهاء الثلاثين » .

ولا يزال الباب مفتوحًا .

الثالث – ولعله متصل بالثانى – أننى لم أنبه على كل الأماكن التى توجد فيها مخطوطات النواجى ، وكان ذلك سهلاً بالرجوع إلى بروكلمان مثلا ، لكنى اكتفيت بأن نصصت على أن الكتاب موجود بمصر أو بالخارج وحددت مكان وجوده هنا أو هناك ، أما استقراء أماكن وجوده فهذا ما يعمد اليه من يحققه لا من يدرسه ، لقد طلبت من ابنى حامد أبو أحمد – وهو نواجى مثلى يدرس فى أسبانيا – أن يبحث فيها عن مخطوطات للنواجى بغية تحقيق ما نجده فى أسبانيا بعد مراجعته على ما نجده فى مصر ، والله الموفق .

الرابع – وهو الأهم – أننى لم ألتفت إلى أخلاق النواجى .

وأنا – بادىء ذى بدء – لم أعرض لأخلاق النواجى ، وفى مجال النقد الأدبى لا تهمنى هذه الأخلاق ، فلا شأن لى بالكتاب الذى صنفه بعض الشعراء وسماه (قبح الأهاجى فى النواجى) ولا بما جاء فى نسخة باريس من (مراتع الغزلان) للنواجى !! من أن ابن حجر كان يبغض النواجى !! لما اشتمل عليه من الفسوق والوقوع فى أعراض العلماء .

أما أن « النواجى تعنت وتحامل بل زيف النصوص وابتعد عن الموضوعية فيما أورده فى المحجة أو بالأحرى فى الحجة » .

فهذه قضية أخرى أعرض لها إن شاء الله عند تحقيقها .

* * *

وأختم بأن أشكر الدكتور عنانى على أن أعطانى هذه الفرصة ، كما أشكره على قوله وهو يعرض للأنشطة الأدبية فى العصر المملوكى :

« أما النقد الأدبى فلم يعالج إلا على نحو عام ، ولم يدرس دراسة فاحصة من قبل ، وهذا مما يضاعف من أهمية دراسة د. قلقيلة عن النقد فى العصر المملوكى » .

وأتشبث بهذا الكلام له لأكمله ملتمسًا العذر لنفسى – فيما قصرت فيه – بقول ابن شهيد الأندلسى » :

« إن الواصف إذا وصف شيئًا لم يتقدم إلى صفته ولا سلط الكلام على نعته ، اكتفى بقليل الإحسان واجتزى بيسير البيان ، لأنه لم يتقدم وصف يقرن بوصفه ولا جرى مساق يضاف إلى مساقه » .

وهذا القول لابن شهيد ليس على اطلاقه ، فأصول البحث ثابتة وهى مطلوبة فى جميع الأحوال ، ولقد أصاب (رينيه لويس) قلب الحقيقة حين قال :« إن قوانين الفكر واحدة فى كل زمان ومكان ، ولن يستطيع الباحث إنتاج شىء ما إلا إذا خلع على بحثه جزءا من نفسه » .

وأقول : بل كل نفسه، فهذا ما كان والحمد لله.